

المحبال الثلاثة

(مقال فلسفى)

للدكتور حامد طاهر

مهما فعل الإنسان أو حتى حاول ، فإنه يظل مربوطًا بثلاثة حبال يشده كل منها إلى جهة معينة ، وهى حبل الماضى ، وحبل الحاضر ، وحبل المستقبل .

أما حبل الماضى ، فهو الذى يشده إلى الأحداث التى وقعت له ، والعلاقات التى أقامها أو قطعها ، والأشخاص الذين أخلصوا له أو خانوه . ومجموع هذه الأمور هى التى تشكل " حقيبة الذكريات " التى يحملها كل منا على ظهره ، ولما يستطيع مهما أقدم على المقائها أو محوها أن يتخلص منها . وعلى الرغم من أن الكثير منا يحاول أن يفعل ذلك ، فإن القليل جدا هو الذى قد ينجح ، ويرجع السبب إلى أن أحداث الماضى وشخصه ليست مجرد أطياف أو خيالات ، بل إنها جزء من لحم الإنسان ودمه ، فكيف يمكن التخلص منه ؟

إن الماضى ليس أرضا مستوية ، بل إنه منطقة مليئة بالتضاريس المرتفعة والمنخفضة ، وكذلك بالحفر والصخور ، وهذه هى ما تمثل الهزائم والانتصارات ، والمقالب المضحكة والمبكيات . وبالطبع يحاول معظمنا أن يتجاهلها أو ينساها لكنها تتميز بالعناد الشديد ، فتتقلب على الدوام فى ذاكرته ، وتظهر فى أدق تصرفاته أو حتى فى كلماته . والأهم من ذلك كله أنها لا تتركه أثناء النوم ، فتخرج بكل حيويتها وشرستها فى أحلامه !

لكن الماضى كما يكون مثبتا للإنسان ، وعقبة فى طريقه نحو الحاضر والمستقبل ، يمكنه أيضا أن يكون دافعا قويا للتخلص من سلبياته ، والعمل بجدية لتحويل مساره ، وتعديل اتجاهاته . وهنا قد نلتقى بالكثير ممن عانى الفقر يسعى إلى الغنى ، ومن تعرض للتهميش والإذلال ينطلق نحو السلطة والمجاهة ، ومن ذاق مرارة الحرمان والجوع يتجه إلى إشباع رغباته ، وملاء جوفه بأكثر مما يحتمل .

ومن المقرر أن الكثير من أحداث الماضى ومواقفه يمكنها أن تفسر وتكشف لنا تصرفات الإنسان فى حاضره ، وربما أيضا فى مستقبله ، وخاصة حين نقف على بواعثها أو دوافعها الخفية ، والتي يحرص الإنسان على وضعها فى صندوق مغلق ولما يسمح لأحد أن يطلع على أى شء مما فيه .

وفيما يتعلق بحبل الحاضر ، فهو الذى يربط الإنسان بواقعه ، وهو يختلف عن حبل الماضى من حيث الطول والوحدة ، لأنه حبل قصير مضمور من عدة حبال مختلفة ، تربط الإنسان بمشاغله اليومية ، ومشكلاته الآنية ، ورغباته الخاصة ، ومن أهمها : الأسرة ، والعمل ، والمدخل ، والحاجيات الضرورية والكمالية ، والوسط الاجتماعى ، والمجال الترفيهى .. وبالطبع يتفاوت الناس فى الاهتمام بأحد أو ببعض هذه المجالات عن غيرها . وما أصعب حال من يسعى لتحقيقها (كلها) ، إذ يجد نفسه موزعا بل مشتتا بين اهتمامات مختلفة ، وأحيانا متضاربة .

ولعلنا نلاحظ أن الإنسان الذى يهتم بعمله ، ويكرس كل أوقاته للنجاح فيه ، لا يجد الوقت الكافى للاهتمام بأمور أسرته ، أو بأصدقائه ، كما أن الذى يهتم بأسرته ، ويغرق فى مشكلاتها لا يجد الفرصة الملائمة للتوفيق فى عمله أو تحسين دخله . والأسوأ من هذا وذلك : الإنسان الذى يلقى بنفسه فى مجال الترفيه يكاد يفقدتها تماما فى مجال الأسرة والعمل .

هى إذن معادلة صعبة ، تلك التى تتعلق بتوزيع اهتمامات الإنسان فى حاضره بالتساوى على مختلف المجالات التى تحيط به من كل

جانبا. وهذا بالنسبة للإنسان العادي، أى الذى ليس لديه طموح ما، ولما هواية محددة، أما بالنسبة لهذين المصنفين، فإن كلا من الطموح والهواية يستغرقه بالكامل، وقد يأخذه بعيدا عن الحياة الأسرية والاجتماعية. وفى حالة إذا لم يوفق فى تحقيق شء فىهما، فإنه قد يقع فى ضحية أحلام اليقظة، أو يحاول التغلب على فشله فيهما بالمهدئات أو حتى بالمخدرات.

ولما شك أن الحاضر قاس، وهو سريع الإيقاع، لا ينتظر مبطئا، ولما يأخذ بيد جريح. والسبب أنه ابن الواقع المتغير دوما، والذى تكثر فيه المصدمات والمطبات، وهذا ما يجعل الناس تسير فيه وكأنها مغيبة، قلما تراها ضاحكة أو حتى مبتسمة، فالكل يلهث وراء هدف، وربما أكثر من هدف! ومعظمهم يتوقع أنه سيحصل على السعادة بمجرد تحقيق هدفه، لكن هيهات! فالسعادة ليست شيئا نمسكه باليد، لكنها — كما ذهب ابن حزم الأندلسى — عبارة عن طرد الهم، وإبعاد الحزن عن القلب.

أما الحبل الثالث الذى يربط الإنسان بالمستقبل، والذى يمكن أن نسميه حبل الأمل فيما لم يستطع الإنسان أن يحققه فى ماضيه أو فى حاضره، لذلك فهو يتوقع أن يحدث فى مستقبله. لكن إذا كانت النتائج تخرج دائما من مقدماتها، فإن تحقيق شء فى المستقبل يظل متوقفا على توافر إمكانياته فى كل من الماضى والحاضر. ومن النادر أن يحقق الإنسان فى مستقبله ما لم يستطع أن يمهد له فى حاضره، أو يكون لديه الدافع له فى ماضيه.

وإذا بحثنا جيدا فى مدى متانة حبل المستقبل وجدناه أضعف بكثير من الحبلين الآخرين، لأن الماضى قد وقع بالفعل، وصاحبه يحمل تبعاته على ظهره، والحاضر يحدث يوميا وهو يقيد خطوات الإنسان ويشتت جهوده، أما المستقبل فهو عبارة عن فضاء هلامى يصعب على أى إنسان الإمساك به، فضلا عن تصوره.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الإنسان الميال عادة للمغامرة يحاول أن يتمسك بحبل المستقبل، لتعويض ما فاتته. ويحدث ذلك دائما فى حالتين: الفضل والشيخوخة. والمسألة هنا أقرب إلى الهروب إلى الأمام. لكن هل هذا ممكن؟ كلا، فليس كل ما يتمناه الإنسان يتحقق ولما سيما فى مثل هاتين الحالتين!

والخلاصة أن تلك المحبال المثلاثة هي التي تزود الإنسان بمجموعة من الروابط التي تظل تشده إلى الدنيا على مدى عمره القصير نسبيا. ومن الواضح أنه بدونها قد يفقد معنى الحياة، ويتحول وجوده إلى يأس كامل، أو ليل بدون نهار.